لأن أي حل يرتبط به يكون أكثر سهولة، من هنا تكتسب الكتابة أهمية لا حق لها فيها[7].

من خلال هذه العناصر الأربعة، المفسرة لجاذبية الشكل المكتوب، يتضح إلحاح سوسير على ثانوية الكتابة وأولية الشفوي. هذه المفاضلة، تجد لها تفسيراً في أساس التصور السوسيري العام، من خلال التمييز الأساسي بين المادة التي على اللساني أن يعالجها، وبين الموضوع الذي يختاره لبحثه.

من هنا يبدو من الأنسب أن لا نقف عند حدود هذه التأكيدات التي يسجل ورودها المستمر في أغلب النصوص النظرية في اللسانيات البنيوية حيث يقترن الحديث عن أولية الشفوي بثانوية المكتوب، كما لو أن الأمر يتعلق بثابت في ألف باء الاتجاه البنيوي اللساني[8].

يبقى مع ذلك أنه إلى جانب التسليم بهامشية الكتابة وثانويتها، فإن المكتوب قدم للسانيات أسباب ولوج فهم اللغات القومية، وانتشارها الثقافي. وهذا ما تقدم من خلال إلحاح سوسير على أهمية المكتوب كوثيقة أو كشهادة، وحتى بالنسبة للغة الأم، تبقى الصورة المكتوبة في نظره، هي التي تطفو أمام أعيننا[9].

كما أننا نجد سوسير ـ في معرض تقديمه للفونولوجيا كعلم رديف للسانيات في الفصل السابع من الدروس ـ يقر «... أننا إذا حذفنا الكتابة... فالشخص الذي نحرمه من هذه الصورة الحسية، يوشك أن لا يدرك إلا كتلة بلا شكل، لا يدري ماذا يصنع بها، كما لو أننا حرمنا سباحاً متدرباً من حزام الفلين الذي يطفو به...»[10].

هذا الإقرار، لا يرد من أجل تأكيد أحقية الدليل المكتوب بالدراسة والبحث، بل من أجل البرهنة على العكس، فهو يرى أنه إذا كان الحرف المكتوب سنداً ضرورياً بالنسبة للسانيين الذين يجهلون كل شيء عن فيزيولوجيا الأصوات المتلفظة، فإن ترك الحرف المكتوب، يمثل بالنسبة له، الخطوة الأولى نحو الحقيقة، لأن دراسة الأصوات ذاتها، هي التي تمنحنا السند الذي نبحث عنه...، وهذا ما فهمه اللسانيون المعاصرون أخيراً مستثمرين أبحاث الفيزيولوجيين، ومنظري الأغاني، وبذلك أعطوا اللسانيات علماً رديفاً حررها من الكلمة المكتوبة[11].

بهذه الكيفية يتجدد مع سوسير واللسانيات البنيوية عموماً نوع من التمركز حول الدليل الصوتي (Phonocentrisme)، وأبعاد الدليل الخطي في مجال اهتمام البحث اللساني.

---

(7) المرجع نفسه، ص ص 46 - 47.
(8) ج لوي شيس و ك. بوش، م. م، ص 7.
(9) ف. سوسير، م. م، ص 44.
(10) المرجع نفسه، ص 55.
(11) المرجع نفسه، ص 55.